ديوان أنشودة المطر للسيَّاب
في ضوء النَّقد البيئي

Boad of the rain chant for al sayya in the light
of environmental criticism

م.د. ولاء ستار هندي
Dr. Walaa sattar Hindi
تدريسي في الجامعة العراقية / كلية العلوم الإسلامية
قسم اللغة العربية
Teaching at the Iraqi University
Faculty of Islamic Sciences
Arabic language department
Email: walaa.s.hendi@aliraqia.edu.iq

الملخص

إن النّقد الأدبي الحديث ميدانٌ منتج للقضايا والظواهر الأدبية الجديدة، فالأبحاث الخاصة بالأدب البيئي ونقده لا زالت أحدث الدراسات الأدبية والنقدية على وجه الخصوص، نتيجةً لحداثة ظهور هذا المنهج بمعناه الجديد، وعلى ذلك نحاول أن نتتبع حقيقة هذا الاتجاه وماهيته، ومكانته من الشعر الحديث من خلال ديوان (أنشودة المطر) للسياب، لنوضح هل جسّد (السيّاب) معنى الأدب البيئي عبر خياله قاصداً ذلك، أم غير قاصد، وهل كانت الطبيعةُ تحظى باهتمام الشعر الحديث، وهل كان هذا الاهتمام قصدياً نابعا عن إدراك الشاعر لأهميتها بعيداً عن الوصف الخارجي لها، وما علاقة الطبيعة وتأثيرها على مخيلة الشاعر، فيمثل هذا البحث محاولة لدراسة تجربة السيّاب الشِعريّة ضمن رؤية النقد الأدبي البيئي.

الكلمات المفتاحية: (البيئة، النّقد البيئي، الخيال البيئي، الأيكولوجيا، الطبيعة).

The summary:

Modern literary criticism is a productive field for new literary issues and phenomena. Research on environmental literature and its criticism remains the most recent among literary and critical studies, in particular, due to the recent emergence of this approach in its new sense. Therefore, we attempt to trace the truth and nature of this trend, revealing its novelty and its place in modern poetry through Al-Sayyab's collection "Rain Anthem." We will clarify whether Al-Sayyab intentionally embodied the meaning of environmental literature through his imagination, or unintentionally. We will also clarify whether nature received attention in modern poetry, and whether this interest was intentional, stemming from the poet's awareness of its importance, or merely an external description. We will also examine the relationship between nature and its influence on the poet's imagination. This research represents an attempt to examine Al-Sayyab's poetic experience within the framework of environmental literary criticism. Keywords: (environment, environmental criticism, environmental imagination, ecology, nature).

المقدمة

لم تنفصل البيئة بأي شكل من الأشكال عن الدراسات الثّقافية بشكلها العام، سواء أكانت دراسات علمية بحتة، أو تاريخية، أو أدبية، وهذا سببه أن الطبيعة والمكان بصورة عامة هما الحيز الذي يتم خلاله وفيه توالد الأفكار، وطرحها ومناقشتها، فهل يعقل أن تنفصل تلك التجارب عن محيطها المولد لها بالأساس، ونحن إذ نسلم بطبيعية ذلك الترابط لا نعني أن الأدب البيئي ومن ورائه النقد البيئي ينشغل بالوصف العام للبيئة، من حيث وصفها الخارجي، ولا النّقد البيئي بمفهومه الحديث يركز على ما وجِد في تراثنا النّقدي القديم من وجود للتأثر والتأثير بين الساكن والمسكن، بل انبثقت دراسات تبحث عن ما هو أعمق من ذلك، تحت تفسير هل أدرك الساكن لأهمية تلك البيئة التي يستمد لوازم حياته منها، وهل بدأ يحاول الحفاظ عليها وعلى ما يضمن لها ديمومتها.

وهكذا بدأ الأدب البيئي يشير للعلاقة بين الإنسان وبين محيطه من موجودات، ويؤكد على حيوية تلك العلاقة عبر اختراق الوصف الخارجي لعناصر البيئة إلى الوصف الحسي بينهما، ومن ثم رفع أهمية المكونات البيئية للقدر الذي يضفي عليها أنسنتها، ولا يحد من أهميتها، فهدفه أبعد من بحث علاقة التأثر والتأثير بين المبدع وبيئته، فالطبيعة متجذرة في كل العصور الأدبية المتتالية، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، فقد مارست الطبيعة سلطانها وفرضت وجودها وقلما _أو قد لا _نجد نصّاً أدبياً خلا منها، إلا أن ذلك ليس من الأدب البيئي في شيء، فالنصوص التي لا تتضمن دعوة صريحة لأهمية البيئة، والحفاظ عليها، وتدرك أهمية التوازن البيئي لا تدخل ضمن مفهوم الخيال البيئي الحديث، كما صاغه الناقد الانكليزي «لورنس بول» في كتابه الخيال البيئي ويعني به: تصوير البيئة تصويراً خيالياً يقربنا منها ويحببنا فيها.

وبما أن الشِعر الحديث أيضاً لم يستغن عن الطبيعة ضمن الوصف المعهود، لكن هذا لا يعني أن لا نفتش في تجارب الشعراء نبحث عن نصوص تجاوزت هذا الوصف الطبيعي إلى الأيكولوجيا العميقة، ونحن نحاول تطبيق آليات النقد البيئي على نصوص محددة نعي جيداً للعينة التي نتناولها، بحيث تضمن الدعوة إلى تلك الفكرة المطالبة بالمحافظة على البيئة من التخريب، والاستغلال البشري السلبي المتمادي الذي زاد تعرضها له في القرن الأخير. ومن هنا كانت دراستنا (ديوان أنشودة المطر للسياب في ضوء النقد البيئي)، تتناول صورة البيئة بكافة

أشكالها، من حيث هل أدرك الشاعر الحديث تلك الأهمية؟ وهل اسعفه خياله البيئي ليعبر عن أهمية البيئة؟ وهل يوجد في شعرية السيّاب شروط الأدب البيئي ونقده، مُميزاً عن الوصف الطبيعي للبيئة؟.

واختيار السيّاب أيضاً لم يكن اعتباطياً، فهو شاعر المكان، وشاعر الارتباط بالأرض بلا مغالاة، فالقرية (جيكور)، والنهر (بويب)، ونخيل البصرة ومزارعها صورة حية في شعره وفي وجدانه، وقد عبر عن مكونات الطبيعة بأفضل تصوير شعري مؤثر، وقد شملت الدراسة محورين رئيسيين: الأول تقديم نظري لبدايات الأدب البيئي ونقده، والثاني تطبيقي لآليات النقد عبر النماذج المختارة، فكان المبحث الأول: الأدب البيئي ونقده بين المفهوم والبدايات. وفيه: أولا: مفهوم النّقد البيئي. ثانياً: بدايات النّقد البيئي وروّاده. ثالثاً: الأدب البيئي ونقده في الأدب العربي. وأما المبحث الثاني: آليات النقد البيئي وتطبيقاته. أولا : آليات النّقد البيئي. ثانياً: نماذج مختارة تطبيقياً. ولا أدعي السبق أو الابتداع، فهناك محاولات سابقة تناولت هذا المنهج الجديد، إلا أنني لم أجد منها ما يتناوله ضمن الشعر الحديث عموماً، والسيّاب خصوصاً، فحاولت البحث في ابداع الشاعر (بدر شاكر السيّاب)، من خلال تتبع خياله البيئي في وصف البيئة، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول : الأدب البيئي ونقده بين المفهوم والبدايات.

أولا: مفهوم النقد البيئي:

شأن أي اتجاهٍ، أو مذهبٍ علمي أو أدبي، لا بد له من بداياتٍ تخص تعريفه، ومحاولات توضح مفهومه، تكون بالتأكيد سابقة لمرحلة استقرار المصطلح الخاص به، وكذا محاولة تعريف منهج النّقد الأدبي البيئي محاولة مبكرة؛ فهو ما زال في طور التكوين والتشكيل. لذا تعترف (Karen winkler) بصعوبة تعريف مصطلح النّقد البيئي، أو مصطلح النّقد الأدبي البيئي؛ لوجود مصطلحات مرادفة كثيرة تضعها تحت عنوان الدراسات الثقافية الخضراء، فهو يعني بالدراسات التي تهتم بالبيئة ولديها وعي بماهيتها وكائناتها. وترجع (Karen winkler) كثرة التسميات المختلفة للمصطلح إلى تشعب الاتجاهات النّقدية في النّقد الأدبي البيئي وتعددها؛ ولذا فهو نقد للجميع. وطريقة الناقد البيئي هي التي جعلت المصطلح مختلفا؛ فبعض النّقاد يرون أن دورهم هو رفع الوعي البيئي لدى الشعب، وطرح مشكلات البيئة على الجمهور، بينما يرى آخرون أنه رد فعل على النظريات النّقدية التي ظهرت في الثمانينات والتسعينيات، الداعية الى

تحليل النص بعيداً عن ظروف نشأته(١).

فالنقاد لم يعتمدوا إلى الأن مفهوماً موحداً للنقد البيئي، ولم يبينوا بشكل واضحٍ ما المقصود منه؛ بسبب حداثة هذا النقد في نظرية الأدب، فيطرح نقاد البيئة عادة أسئلة من قبيل: كيف يتم تمثيل الطبيعة في هذا السونيت (sonnet)؟، وما هو الدور الذي يلعبه المكان المادي في حبكة هذه الرواية؟ وهل القيم التي يعرب عنها في هذه المسرحية تتفق مع الحكمة الأيكولوجية؟ وهلم جرا. وثمة سؤال آخر ينظر إليه، وهو: هل الرجال يكتبون عن الطبيعة بشكل مختلف عن النساء؟(٢).

وبالاعتماد على الطروحات الواردة حول هذا الاتجاه يتوضح لنا أن النّقد البيئي ذلك النّقد الذي يهتم بدراسة النصوص، والخطابات الأدبية، والإبداعية في ضوء نظرية بيئية إيكولوجية، تبحث عن مكانة البيئة، أو الطبيعة، أو المكان، أو الأرض، أو الحياة داخل الإبداع الأدبي والفني، وذلك بالتنظير والتحليل والقراءة والفحص والدراسة، بغية رصد رؤى الكتاب والمبدعين والمثقفين تجاه البيئة، وخاصة بعد ظهور الحركات والجمعيات والمنظمات والنوادي الداعية إلى الاهتمام بالبيئة، بعد تفاقم ظاهرة التلوث عالمياً براً وبحراً وجواً. وهكذا يبدو أن النّقد البيئي هو الذي يعقد ترابطات نصية، وخطابية بين الأدب والطبيعة، والأرض، والمكان والبيئة، وذلك في ضوء قراءات متنوعة، قد تكون ثقافية، أو تفكيكية، أو تأويلية، أو نفسية، أو اجتماعية، أو تاريخية، أو جمالية، أو تحليلية(٣). والمحصلة هو عبارة عن اشتغال جديد في النص الأدبي قائم على لفظة البيئة وما يرتبط بها، وقد تزامنت الدعوات إليه مع بروز فلسفة ما بعد الحداثة، التي أخذت على عاتقها الحد من المركزية البشرية بإزاء الطبيعة(٤).

فالنّقد البيئي يركز على الأعمال الأدبية التي تعالج مشاكل البيئة، ضمن مفهومها الثقافي، ودراسة البيئة تنطلق من منظورين: الأول: هو البايولوجي (الطبيعي المحض): أي دراستها بالصفة

(١) ينظر: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية ، أ. د. محمد أبو الفضل بدران، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية ، ص١٩٥.

(٢) ينظر: نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، النقد البيئي أو الأيكولوجي، د. جميل حمداوي، موقع الألوكة، تاريخ الإضافة ٢٠١٢/٣/١٩م، ص٢٩٧.

(٣) ينظر: نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، النقد البيئي أو الأيكولوجي، د. جميل حمداوي، ص٢٩٧.

(٤) ينظر: النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات المعاصرة ، ايمان مطر السلطاني ، مجلة اللغة العربية وآدابها ، العدد ٣٣، آيار ،٢٠٢١م، ص٢٠.

العلميّة، دون تناول تأثُرها وتأثيرها. والثاني الثقافي، الذي يعني بدراسة البيئة بوصفها موضوعاً ثقافياً، وهو أوسع من الأول وأشمل، إذ يرمي إلى دراسة البيئة تأثُراً وتأثيراً[١]. وهذا الاتجاه النّقدي جديد ظهر في نهاية القرن العشرين، عني بدراسة العلاقات بين الأدب والبيئة، وكيفية تمثيل علاقات الإنسان ببيئته المادية في الأدب، وربما ما حفز لظهور هذا النوع من النقد الحاجة الماسة للعودة بالعالم من التصنع إلى الطبيعي، عبر تسليط الضوء على أهمية البيئة[٢]. إنه تنبيه إلى دور البيئة المهّمش، والناقد البيئي يتوقف مع حضور البيئة الجلي، أو المتواري في النص الأدبي، ويجلو علاقة الأديب بالبيئة وموقفه من قضاياها بحيث يشكل المبدع جزءاً من البيئة لا مشاهداً أو واصفاً لها[٣].

وبما أن النقد البيئي شاع حديثاً، وهو نتيجة حتمية للأدب البيئي الذي سبقه بالضرورة، فـ(نظرية هذا المنهج لا تكتفي بالتوقف حيال الأدب البيئي الجديد بل تعمد إلى نصوص قديمة محاولة تطبيق هذا المنهج عليها، فهي لا تتوقف حيال الجديد فحسب، بل تحفر في التراث الأدبي لاستكشاف الوعي البيئي فيه، ومن هنا فإن هذا المنهج سيفيد الأدب العربي التراثي والمعاصر)[٤]. والنقد البيئي على وفق هذا التأسيس نجده غريباً على أدبنا العربي القديم، إذ لم يتحدد ضمن مفهومه الجديد، وربما سبب ذلك هو انعدام الأسباب الموجبة لظهوره .

ثانياً: بدايات النقد البيئي وروّاده

إن النّقد البيئي مدرسة نقدية معاصرة، تعني بالتفاعل بين الإنسان والطبيعة، أخذت ملامحها تبرز وتتبلور منذ تسعينيات القرن العشرين في الأدب الأمريكي والأوربي. فالباحث عن بدايات النقد البيئي لا يتجاوز حقبة الربع الأخير من القرن العشرين، إذ ظهر النّقد البيئي جلياً في السنوات الأخيرة من هذا القرن، وبحدود العام ١٩٧٨م، في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، ضمن مؤسساتها الأكاديمية. وخير من حدد بداية ظهور المصطلح بمفهومه المحدد والواضح رأي كارتر، إذ يحدده بمقال كُتب بـ(قلم ويليام روكيرت William ryeckert في عام ١٩٧٨م على

(١) ينظر: الإنسان والبيئة، جواد كاظم الحسناوي ومحمد محود زنكنة، مطبعة البهاء، ط٢، النجف، ٢٠١٧م، ص٣٠.
(٢) ينظر : جرج جيرارد، النقد البيئوي، ترجمة: عزيز صبحي جابر، دائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٩، ص١٠. و بعلي حنفاوي، مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٢٤.
(٣) ينظر: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، أ. د. محمد أبو الفضل بدران، ص١٩٦.
(٤) أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية ، بدران، ص١٩٥.

الأقل، وهو بعنوان:» الأدب وعلم البيئة: تجربة في النقد البيئي» وقد بقي هذا المفهوم هامداً لبعض الوقت حتى أيقظت «شيرل بورغيس غلوتفيلي» الاهتمام به مجدداً في أحد المشاريع من خلال نشر دراسة استقصائية في هذا المجال، والتي قامت بتحريرها مع هارولد فروم تحت عنوان «مجموعة مختارة من النقد البيئي: أعلام في أدب علم البيئة» ١٩٩٦م». وفي عام ١٩٩٢م. تأسست رابطة لدراسة الأدب والبيئة (asel)، وكان لها مجلتها الخاصة، وكان لها أيضاً نشرة إخبارية وموقع على الانترنيت)[١].

وهناك من يرى أن شرارة النّقد البيئي بدأت كما يشير أغلب الباحثين بهذا الشأن في مجموعة الكاتبة (راشيل كارسون)، وعنوانها (الربيع الصامت)، وبالأخص قصة (خرافة الغد)، التي نشرت في عام ١٩٦٢م، والتي صورت فيها تحول الموجودات الحيّة وغير الحية، فكأنها وثيقة بيئية كاملة، ترصد تحول الكون من الطبيعي إلى اللاطبيعي، عبر وصف الأساليب والأسباب التي أدت إلى تدمير البيئة، ومن هذه المحاولات للكاتبة برزت إشارات لمنهج النّقد البيئي[٢].

وبعدها بدأت الثقافات المختلفة بتناول النقد البيئي، فظهرت مجموعة من العلماء والباحثين في الثقافة الأمريكية بدراسات البيئة، وقد وضعوا بصمتهم الخاصة في هذا الحقل المعرفي أيضاً، ومن أهمهم (لورانس بويل)، لأهمية كتابه «الخيال البيئي» إذ أشار فيه إلى وجود فجوة بين النصوص والوقائع من الناحية النظرية، والنّقد البيئي يملأ هذه الفجوة، وفي ألمانيا فأن «جوست هيرماند» كان صاحب الباع الطويل بالاهتمام بالأدب البيئي ونقده، إذ أصدر كتابه «اليوتيوبا الخضراء في ألمانيا»، وبعدها شاع هذا المصطلح كثيراً[٣].

ويظهر لنا أن مجموعة أسباب تجمعت لتؤدي بالتالي لانطلاق بذرة الأدب البيئي ومن ثم النقد البيئي، وفي مقدمتها (الصحوة الخضراء)، أي ظهور حركة عالمية واسعة، ترفع شعارات المحافظة على البيئة، وربما كان لظهور الرومانسية، وعودتها إلى الطبيعة دفع مجموعةً من المهتمين بالبيئة، التأسيس لفلسفة إيكولوجية تتكئ على أدبيات الرومانسية، وأما ثالث هذه الخلفيات، فهي تلك التي أفرزتها السجالات والقطائع بين الحداثة وما بعد الحداثة، والتي كان من نتائجها الإعراض عن الإرث الفكري والفلسفي، والسعي الما بعد حداثي، لأن الفكر

(١) النظرية الأدبية، ديفيد كارتر، ترجمة : د. باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق _سوريا، ط١، سنة ٢٠١٠م، ص١٥٣.
(٢) ينظر: النقد البيئوي، جيرار جرج، ص١٦ . ونظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، جميل حمداوي، ص٣٣٠.
(٣) ينظر: النظرية الأدبية، ص١٣٧. والنقد الأدبي البيئي ، محمد أبو الفضل بدران ، ص١٦.

الما بعد حداثي يصر على افتقاد الفكر الحداثي ذاكرته الحداثية، واهتمامه بفكرة مركزية الإنسان والعقل(١).

ثالثاً: الأدب البيئي ونقده في الأدب العربي.

لا يختلف اثنان على وجود البيئة الواسع في الأدب العربي، بشعره ونثره، لكن بداية يجب أن نُعرِف الأدب البيئي بصورة دقيقة، ما دامه الحيز الذي انبثق عنه النّقد البيئي وهو مرتبط به، فلا يعد كل أدب صور الطبيعة هو أدب بيئي، فيجب التفريق بين وصف الطبيعة الخارجي والوعي البيئي، فالواصف شجرة مثلاً دون وعي بأهميتها وجمالها من الصعب إدخاله في دائرة الأدب البيئي، وإلا لعُد الشعر الرومانسي كله شعراً بيئياً، إن مصطلح الأدب البيئي يشترط احساس الكاتب بالبيئة، التي يعد جزءاً منها، وهذا الإحساس يجعلنا نتغاضى عن الأدب الواصف للطبيعة دون فهمها ودون محاورتها، ودون الوعي بها، لكن الشاعر العربي ما فتئ يحس بالطبيعة مبهوراً بها، ومحاوراً الكائنات الحية بل الجماد منها أيضاً، وهذا تضمنه التراث النثري أيضاً، وهناك الكثير من النصوص الشعرية والنثرية تؤكد ما ذهبنا إليه من أن عين المبدع العربي لا ترى قشور الطبيعة، بل ترى ما لا يراه الناظرون، وعلى ذلك فالنقد البيئي يعيننا على فهم إحساس المبدع العربي تجاه الطبيعة(٢).

لكن ليس كل أدب يتناول الطبيعة نستطيع أن نطلق عليه أدباً بيئياً؛ لأن الأدب البيئي له شروطه ومحدداته، ومن أهم شروط الأدب البيئي هي:

١_ أن يتحول الأدب البيئي الى رسالة مباشرة للحفاظ على البيئة، ويتجاوز وصف البيئة.

٢- أن يجسد المخاطر والتحديات التي تتعرض لها البيئة.

٣_ أن يحمل الأديب هماً بيئياً ويحاول في أدبه أن ينشر الوعي بأهمية البيئة.

٤_ أن يعمد إلى تربية الحس البيئي عند المتلقي من خلال الوسائل البيئية ومن أهمها الخيال البيئي والتناص البيئي.

٥_ أن يحقق شروط التنمية المستدامة، ويحد من مركزية الإنسان على الطبيعة.

(١) ينظر: من أجل لغة خضراء _ محاولة في فهم أدب البيئة ونقده ، د. خميس آدامي ، مجلة أبوليوس ، المجلد ٨ العدد ٢، جولية ٢٠٢١م، ص٨_٩.

(٢) ينظر: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، ص١٩٦.

٦_ يجب أن يهتم الأدب البيئي بالبحث عن الوظيفة البيئية المتوارية خلف الصفة الجمالية، كما يعني بالتفتيش عن سبب حضور البيئة في النص الأدبي

٧_ أن يخرج من وظيفة الفن للفن، والوظيفة الجمالية المحضة إلى الوظيفة الاجتماعية والاخلاقية فيسهم في تعزيز الوعي المجتمعي بالتحديات البيئية وتأثيرها على الإنسان والأرض بغية تبديل السلوك السلبي بإزاء البيئة إلى سلوك ايجابي(١).

ولهذا نحن بحاجة إلى دراسة النصوص الأدبية في أدبنا العربي في ضوء النقد البيئي، وبداية من الشعر الجاهلي نجد البيئة تأخذ المساحة الأكبر فيه، كما أن الشعر العباسي والأندلسي لا يقل ارتباطاً عن الشعر الجاهلي بالبيئة، سواء كانت بيئة طبيعية، أو اصطناعية، فتحتاج هذه البيئة منا إلى دراسات وأبحاث تتسلح بالنقد البيئي، بغية معرفة مكانة الطبيعة في شعرنا العربي، ونعرف كذلك مكانة المكان في السرد والقصص والحكايات، ولا ننسى أيضاً ارتباط شعر الرومانسية الوجدانية العربية في العصر الحديث بالبيئة، وكذلك دراسة المكان والبيئة في الشعر العربي المعاصر(٢).

كما أن المصطلح النقدي العربي متأثر هو الآخر بالبيئة، بل نراه يستمد هو الآخر الكثير من معاني الطبيعة في تنظيراته؛ وهو ليس بمنأى عن ذوق عصره وبيئته؛ ولذلك هو مصطلح مؤقت في بعض جوانبه بزمانه ومكانه؛ ولذلك لم تقوَ بعض المصطلحات النّقدية على الوفاء بتحليل كثير من الاعمال الأدبية لفترات طويلة، من أمثال هذه المصطلحات: (الخنذِيذ، المصَلي، السُكيت، الموشّح ....) وهذا سببه أن العرب لم تُحصِل في الجاهلية وصدر الإسلام من العلوم العقليّة كالمنطق والفلسفة ما يجعلها تصوغ مصطلحاتها صياغة لغوية، وإنما كان الغالب عليها التفكير الحسي، ونستطيع أن نتلمس آثار هذا التكيف مع البيئة في الأدب العربي منذ بداياته الأولى وحتى مطلع القرن الأول الهجري، فهو أدب غذي بلِبَان بيئته العربية، فحمل ملامحها، ولم يكن النقد الأدبي بمعزِل عن ذلك كلّه، فقد كان الناقد العربي شاخصاً في تقييمه لعملية الابداع والمبدع إلى أثر البيئة فيهما جميعاً، بل إنه لا يفتأ يتأثر هو الآخر بها في مصطلحاته وأحكامه، ويمكن أن نرى أثر ذلك واضحا في اسماء مؤلفاته، من امثال : «فحولة الشعراء»، و»الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء»، فالمبدع، والنص، والناقد لا يكادون يخرجون عن

(١) ينظر: الخيال البيئي في شعر ابن حميدس الصقلي في ضوء النقد البيئي، د. سلام علي، ٢٠٢٤م، ص٩.
(٢) ينظر: نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، ص٣٠٢.

حيز البيئة جميعاً[١].

وبالرغم من وجود البيئة بوضوح في الشعر العربي القديم ونقده، إلا أن النقد البيئي بمفهومه الحديث لم يُعرف في نقدنا العربي القديم، إذ هو تنبيه إلى دور البيئة المهمّش، وجرس إنذار يشير إلى ما فعله الإنسان بها، وأثر ذلك في الإنسان ذاته، والناقد البيئي يتعامل معها بندية واضحة؛ بحيث يتوقف الناقد مع حضور البيئة الجلي، أو المتواري في النص الأدبي، ويجلو علاقة الأديب بالبيئة وموقفه من قضاياها بحيث يشكل المبدع جزءاً من البيئة لا مشاهداً، أو واصفاً لها، بحيث نلمح الوعي البيئي والخيال البيئي في النص، فالنقد الأدبي البيئي موضوعه الترابط بين الطبيعة والثقافة، إنه الحوار بين الإنسان وغير الإنسان، وهذا الحوار وهذا التفاعل هما ما ينبغي على الناقد البيئي رصده وتحليله[٢].

وأما في النقد العربي الحديث هناك جهود على الرغم من قلتها؛ لحداثة هذا المنهج وتعدد مفاهيمه، عملت على دراسة النّقد البيئي والبحث في ماهيته، بدأت تظهر مطلع القرن الواحد والعشرين، تتمثل بالناقد محمد أبو الفضل بدران، والناقد والأكاديمي الجزائري (حفناوي بعلي)، ومن ثم تبعهما الكثير من النقاد والباحثين في النقد البيئي على مستوى المقالات، والابحاث، والتجمعات الثقافية.

المبحث الثاني: آليات النّقد البيئي وتطبيقاته:

أولاً: آليات النّقد البيئي:

قبل الشروع في مقاربة النصوص الشِّعرية لمنهج النقد البيئي، لا بد من معرفة الآليات والأسس التي يعتمدها هذا المنهج، إذ لا يخلو أي مذهبٍ من مذاهب الشعر والنّقد من طروحاتٍ، ومصطلحات خاصة به، يُؤسس عليها، والجدير بالذكر أن هذه المصطلحات لا تبتعد كثيراً عن تسمية المنهج نفسه، فهي ترتبط به وتنبثق عنه، وعن مضمونه، فعندما تصادفنا مصطلحات مثل: الخيالُ البيئي، البيئة العميقة، التناص البيئي، نجدها تُطرح كلها من المفهوم العام لمصطلح النَّقد البيئي، ولا تأتي بشيءٍ غريبٍ عنه، وعلى ذلك يقوم التحليل النَّقدي للنصوص الأدبية وفق المنهج البيئي على عدة مصطلحات، ومحددات نقدية، نجمل أهمها فيما يأتي:

(١) ينظر: أثر البيئة في النقد الأدبي عند العرب، د. سعد محمد عبد الغفار، جامعة أسيوط مصر . د. ت، ص ٥_٦ .
(٢) ينظر: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، ص١٩٦.

أ_ الخيالُ البيئي: يُعد من أهم مقولات النقد البيئي، وهو يعني كيفية تفاعل الخيال الشعري تجاه مكونات الطبيعة، على أن لا يكون هذا التعامل جافاً خارجياً، بل يكون نابعاً عن إحساسٍ متبادل بين الشاعر، وبين ما يصف من مكونات بيئية.

ب_ الحس المكاني: يمثل طبيعة العلاقة بين الإنسان والمكان، أي «الربط والاستجابة وردة الفعل اتجاه المكان»(١).

ج_ الاستدامة: وهي المحافظة على النظام البيئي، وعدم خلق ظروفٍ تسبب خرقاً للتوازن الذي تحتاجه البيئة للديمومة والاستمرار(٢).

د_ الإيكولوجيا/ البيئة العميقة: تقوم على إبطال المركزية البشرية، والحد منها، وجعل مركزية البيئة مساوية للمركزية البشرية، أي أن البيئة كائن حيٌ، له ما للإنسان من حقوق(٣).

هـ_ التناص البيئي: عملية استحضار المبدع لنصوص سابقة تحتفي بالبيئة، والطبيعة، وضخها في عمله الأدبي، لبيان أهمية البيئة، وأثرها الفاعل في حياة الإنسان(٤). ولا يختلف في معناه الحديث الذي وضعته (جوليا كرستيفا) بأن النص لوحة من الاقتباسات عن المعنى القديم له تحت التوارد في الخواطر(٥).

ومن خلال ما سبق ذكره من مصطلحات نقّدية تخص النّقد البيئي _بما تضمه من مفاهيم ورؤى_ نحاول أن نكتشف موقف أدبنا الحديث من البيئة، من خلال تحليل نماذج شعرية مختارة للشاعر «بدر شاكر السياب» في ضوء النّقد البيئي، للكشف عن أمور عدة منها: هل أدرك الشاعر الحديث أهمية البيئة، ومن ثم هل تناول الطبيعة قاصداً الاهتمام بها، مخترقاً الوصف العارض للطبيعة إلى البنية العميقة للبيئة من خلال الخيال البيئي، وهل وظف ذلك صراحة في شعره،

(١) النقد البيئي مقاربات وتطبيقات، مجموعة مؤلفين، ترجمة نجاح الجبيلي، دار شهريار، العراق، بغداد، ط١، ٢٠٢٠م، ص٣٢٤.

(٢) ينظر: النقد الأدبي البيئي، قراءة في مدونة الدراسات العربية البيئية وممارسة تطبيقية على قصة «رأيت الجبل» لرضوى عاشور، هاني علي سعيد، ٢٠٢٢م، ص٤٥٨.

(٣) ينظر: النقد الأيكولوجي الطبيعة في النظرية والممارسة، مايكل برانش، ترجمة معين رومية، مجلة نواف، النادي الأدبي الثقافي جدة، عدد٣٦ ،٢٠٠٧ م ، ص٥١.

(٤) ينظر: التناص نظرياً وتطبيقياً، أحمد الزعبي مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٧. والنقد البيئي، الرؤية والتطبيق، دراسة تطبيقية لنماذج شعرية من شعر المدينة والريف للشاعر الجزائري عبد الملك بومنجل، فريد عوف، الجزائر مجلة دراسات المجلد ١٢/ العدد ١، ماي ٢٠٢٣م، ص٤٧١.

(٥) ينظر: إشكالية المصطلح البلاغي في الخطاب النقدي الجزائري المعاصر، فريد عوف، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية ،العدد ١٧_ ٣ ، ط٢٠٢٠م ، ص١٣٠.

بطريقة مقصودة واعية. بحيث أشار إلى موقف الإنسان من البيئة سواء بالسلب، أو الايجاب.

ثانياً: نماذج مختارة تطبيقياً:

قبل أن نحاول قراءة بعض النصوص الشعرية في ضوء النّقد البيئي، يجب أن نشير إلى قضية مهمة، وهي ضرورة معرفة المرجعيات الاجتماعية والثقافية للمؤلف، وأهمها مكان سكنه الذي عاش فيه طفولته، هذا لما له تأثير مباشر على مشاعره، فالعلاقة في هذه الحالة لا تكون جافةً خالية من المشاعر بين الواصف والموصوف، فالبيئة تلقي بظلالها على ساكنيها، وهذا ما سُجل على الأدب وخاصة الشعر، والأديب يُطبع بطابع بيئته حتماً، فالناقة والضعن والخيمة والاطلال والرعد وغيرها من المكونات البيئية والظواهر الطبيعية بدت واضحة في الشعر الجاهلي، ومجالس القيان والزهور والقصور والفواكه ظهرت أكثر في الشعر الأندلسي، لأنها أيضاً مارست سلطتها على الشاعر آنذاك، ومن هنا نؤكد على معرفة شيء عن الشاعر، ليساعدنا على فهم العلاقة بينه وبين البيئة الموصوفة في شعره .

وسنستعرض بعض النصوص الشعرية التي نراها على تماس عميق مع البيئة، وخيال السيَّاب البيئي واضحاً فيها، كما في قصيدة (عرس في القرية)، التي ننقل مقاطعا منها[1]:

مثلما تنفض الريحُ ذَرّ النُّضار
عن جناح الفراشة، مات النهار
النهار الطويل
فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبق إلا القليل
كان نقر الدَّرابكِ منذ الأصيل
يتساقط، مثل الثمار
من رياح تهوِّم بين النخيل
يتساقط مثل الدموع
أو كمثل الشرار
إنها ليلة العرس بعد انتظار
مات حب قديم ومات النهار
مثلما تطفئ الريح ضوء الشموع.....

(١) ديوان أنشودة المطر، بدر شاكر السياب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر _ القاهرة، بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦م. ص٢٩.

زهدتها بنا حفنة من نضار
خاتمٌ أو سوار، وقصر مشيدْ.....
مثلما تنثر الريح عند الأصيل
زهرة الجُلَّنَار

إن من يتأمل عنوان القصيدة يقف كثيراً أمامه، لما يحمله من دلالات رمزية، وانزياحات معنوية، فـ(عرس في القرية)، عرس في مكان محدد وهي القرية، والعرس في القرية غير العرس في المدينة، لوجود الاختلافات في البيئة والمكان، وفي تقاليد الناس من حيث علاقاتهم ببعض، وفي طبيعة التعامل مع مكونات البيئة، لذا نجد مفردات الطبيعة هي الأساس التي تقوم عليه القصيدة، وهي قنطرة لعبور مشاعر الشاعر عبر خياله البيئي من خلالها.

إن الخيال البيئي في هذه القصيدة لم يصور لنا عرساً اعتياديا، وإنما جعل من هذه القصيدة نافذة يعبر بها عن مشاعره تجاه الريف، وحاول أن يكشف عن العلاقة بين القروي وبين مكونات بيئته، تلك العلاقة التي صورها الخيال البيئي أحسن تصويراً، لما يمتلكه من معجم بيئي ثر، فينسحب الشاعر خلف عناصر البيئة، ويدعها تتكلم، وتعبر عما يشعر فيه ويعانيه في داخله، فيتحول الإحساس بالمكان إلى ما يسميه غاستون باشلار «الساكن هو المسكن والمسكن هو الساكن»(١). وعبر أنسنة الموجودات يعبر الشاعر عن إحساسه متوارياً خلفها، وجاعلاً من هذه المكونات نافذة للكشف عن مشاعره، لذا نرى أن المعجم البيئي هو المسيطر على النص، فالسيّاب يعتمد اعتماداً كلياً على مفردات الطبيعة.

وبهذا نجد الشاعر عمل على إبطال المركزية البشرية، وجعل البيئة العميقة تحل محلها، عبر علاقة متبادلة بين (نوار) بالتحديد _متمثلة بالشخص الذي يسكن الريف_ وبين المفردات البيئية فيقول(٢):

أقفر الريف لمّا تولّت نوار
بالصبابات ، يا حاملات الجرار
رحن واسألنها: (يا نوار هل تصيرين للأجنبي الدخيل؟
للذي لا تكادين أن تعرفيه ؟
يا أبنة الريف ، لم تنصفيه

(١) جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة : غالب هلسا، الناشر: دار الجاحظ ، بغداد ، ط١، ١٩٨٠م، ص١٧٧.
(٢) الديوان، ص٣٠.

كم فتى من بنيه
كان أولى أن تعشقيه
إنهم يعرفونك منذ الصغر
مثلما يعرفون القمر
مثلما يعرفون حفيف النخيل
وضفاف النهر
والمطر
والهوى، يا نوار

هذه الكلمات هي مناجاة عميقة ترصد العلاقة القائمة بين إنسان الريف، وبين مكونات بيئته، وهذا يدل على شعور الشاعر بأهمية الطبيعة، من أشجار ونخيل وأنهار؛ فهي أحياء لها شعور، ولها وجود في الحياة اليومية، وعلى الإنسان أن لا يهملها ويبتعد عنها، ومثلما هو له أحاسيس هي لا تخلو منها. ويتوضح لنا أيضاً الكشف عن العلاقة بين الإنسان والمكان، أو ما يعرف بالحس المكاني فـ(أقفر الريف لمّا تولّت نوار) هو ارتباط مكاني لا يمكن أن ينقطع، وإن حصل فالريف يخلو من أهم مكوناته، وهذا يؤكده التساؤل الذي يلحقه.

إن علاقة الإنسان بالطبيعة في بدايات حياته علاقة حية، فهذه الزمكانية لها حضور لا ينفصل عن تشكيل الحالة الذهنية بكل تفاصيلها، إذ تبقى ذكرى تُثير عواطفه وتذكره بزمن النشأة الأولى، فكل جزئية من هذه الطبيعة لها حيز في نفسية الشاعر لا يأخذه غيرها، مهما مرت الأيام وحضرت الأشياء الجديدة، ففي قصيدة (مرثية جيكور)[1] :

... أنت جيكور كل جيكور أحداق العذارى وباسلات الزنود
والرؤوس التي حثا فوقهن الدهر ما في رحاها من تنكيد
صرد القمح من نثار لها اللون ولم تحظ بالرغيف الوئيد
فهي صحراء تزفر الملح آهات وشكوى لمائها الموؤد
خورس:
شيخ اسم الله
ترللا قد شاب ترل ترلَّ ترار وما هلا ...

(١) الديوان، ص٦٩.

إنها الريح فاملئي الريح يا جيكور بالضحك أو نثار الورود
قطب الصمت حيث كانت أغانيك، وحيث العبير نتن الصديد
جاء قرن وراح والمدن في ضوضاء، ما زلن من حساب النقود
ضاع صوت الضعاف فيها وآهات النبين وابتهال الطريد

يرتبط السيّاب ارتباطاً وثيقاً بقريته، وهو يفصح عنها، وعن صفاتها، وما تحمله من تقاليد وتضمه من أشجار وزروع، ويذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يصور العلاقة بين الإنسان في القرية وبين مكوناتها الطبيعية، عبر وعي بيئي متقدم يُدرك وجود القيم الأخلاقية والإنسانية التي تمنحها البيئة الطبيعية، وقد كرر ذلك من خلال تسمية أكثر من قصيدة باسمها في ديوان «أنشودة المطر» حصراً، فـ(مرثية جيكور، وتموز جيكور، وجيكور والمدينة، والعودة لجيكور)، كلها قصائد باسم قريته. لقد «منحها ما لم يمنحه شاعر لقريته، وجوداً لا يفنى ولا يبيد، وربما أصبحت أكبر ملمح من ملامح السياب الشعرية»[١]. وهذا إن دل على شيء فأنه يدل على ارتباطه الوجودي بالمكان، وتعلقه بأشياء المكان، فهو يحد من مركزية الإنسان، ويجعل مركزية البيئة مساوية لها، وهذا يدل على أن تجربة السّيّاب صالحة للمقاربة وفق آليات النقد البيئي لتأثر الشاعر بالطبيعة الجلي، ولكونه أبن الريف، الذي فُرض عليه أن يغادره لطبيعة الحياة العملية له، مما جعله يتوق للطبيعة، ويناجيها باستمرار، فقريته جيكور «رمز الخصب والرزق والطمأنينة وإقبال الحياة وامتناع الظلم ونأي المستثمرين والجفاة ممن لا ملامح لهم، إنها الألفة والأهل والمحبة»[٢]. فالإنسان في قريته صديق للبيئة ينميها، ويستمد منها طعامه، عبر العمل على توفر عناصر الاستدامة لها، فيهتم بها على العكس من بيئة المدينة، التي تنفصل عن الطبيعة انفصالاً تاماً، وإن وجد اتصال بينهما، فيقوم على الحد من الطبيعة وخرابها فقط، بعيداً عن كل أشكال القيم الإنسانية.

وينتقل الشاعر بخياله البيئي الواسع عبر أنسنة الأشياء إلى تضمينها نصوصاً من التراث الشعبي التي تصور أجزاء من البيئة فـ(خورس: شيخ اسم الله ترللا قد شاب ترلل ترلل وما هلا)، هي أغنية يغنيها (الخورس)، و(شيخ اسم الله) نبات كالحلفاء تؤكل أزهاره وهي في براعمها، وتفتح عن سنابل تشبه الرؤوس التي شابت[٣].

(١) المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي ابو غالي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٥م، ص٥٢.
(٢) بدر شاكر السياب شاعر الأناشيد والمراثي، إيليا حاوي، ص٤٢.
(٣) ينظر: الديوان ص ٦٩.

إن الخيال البيئي لدى السيّاب متوقد وصريح، فالقارئ لا يشقى عندما يبحث عن موقف الشاعر من البيئة، ففي كثير من قصائده نراه يغوص بخياله البيئي وراء الطبيعة، فهو يمتلك خيالاً بيئياً متقدما، بحيث يوفر له إحساساً فريداً يُمكنه من وصف شعور الأشجار والقرى، وما تحس به عند نزول المطر، مستعيناً بالصور البلاغية والتشبيهات الجميلة، كما في قصيدة (أنشودة المطر)[1]:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر ....
أكاد اسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن والمهاجرين

عندما يريد الشاعر أن يستذكر زمن طفولته بوجود أمه يستعين بالطبيعة ليعبر ذلك، فهو يقرن الحنين إلى الأم، وإلى زمن الطفولة بشوقه إلى القرية التي نشأ فيها، ومارس لعبه مع أنهارها، وزروعها وأشجارها، وأسماكها، فهو يعرفها وهي تعرفه والعلاقة بين الاثنين قائمة على أنسنة هذه المكونات البيئية، وجعلها متوازية مع وجود الشاعر في الحياة. يرتبط المكان بخيال المبدع، وله دور مهم في التشكيل الجمالي للإبداع، وهذا ظهر جلياً في أغلب قصائد السيّاب، إذ نجد الكثير من الأمكنة الريفية في قصائده تفصح عن العلاقة بين الشاعر وبين الريف، التي طالما يحن لها عند شعوره بالغربة في المدينة، فهو يحس بأن الريف الحرية/ الحيوية التجدد، والمدينة التقييد الغربة الجمود القسوة، وهذا تُبينه قصيدة (النهر والموت)، التي وصف فيها الشاعر علاقته بأهم مكونات الطبيعة في قريته (جيكور)، وهو النهر (بويب):

بُوَيب بيويب .....
أودُ او أطلُ من أسرّة التلال
لألمح القمر
يخوض بين ضفتيك، يزرع الظلال
ويملأ السلال
بالماء والسلال والزهر
أودُ لو أخوض فيك أتبع القمر

(١) الديوان، ص١٣٣.

وأسمع الحصى يصل منك في القرار
صليل آلاف العصافير على الشجر
أغابة من الدموع أنت أم نهر؟
والسمك الساهر هل ينام في السحر؟.

الشاعر يحاول العودة بالزمن والمكان، فالزمن يستذكر أيامه عندما كان يلهو ويلعب في النهر، والمكان هو (بويب) في جيكور، فهو لا ينفك يذكر المكان ولا يفكر بالانفصال عنه عبر المخيلة، وعبر الخيال البيئي، كأنه يرى أن وجود هذه المكونات من العصافير والأسماك والماء هي من لوازم التوازن البيئي الذي لا يكتمل إلا بوجود النهر وفيه الماء، فوجود النهر ضروري بالقدر الذي يوفر ويحافظ على هذه الموجودات.

والذي يطلع على شعر السيّاب يجده من أنصار الريف ضد المدينة؛ لأنه يرى المدينة عبارة عن شيء صامت يفتقد للحياة، فكل ما فيها يوحي بالموت، كالبنايات والصخور والطرق، التي تخلو من العناصر البيئية، وأكثر من ذلك فالمدينة، وما فيها من صخب وزحام الحياة تخلو من الروابط والقيم الإنسانية، وقليلة التقاليد المجتمعية الأصيلة، التي توجد في الريف، فالغربة في المدينة ناتجة عن قطع تلك الأواصر التي تجعل الانسان بعلاقة حية مع محيطه، وما يحتويه من مكونات طبيعية، وهذا ما عبر عنه في قصيدة (المسيح بعد الصلب)[1]:

بعد ما أنزلوني سمعت الرياح
في نواح طويل تسف النخيل ....
ثم تغفو على ما تحس المدينه[2] ....
قلبي الماء قلبي هو السنبل
موته البعث يحيا من يأكل ....
متُّ، كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسم
كم حياة سأحيا ففي كل حفره
صرت مستقبلاً صرت بذره ....
بعد أن سمروني وألقيت عيني نحو المدينه
كدت لا أعرف السهل والسور والمقبرة

(١) الديوان، ص ١١٢.
(٢) ملاحظة : لقد نقلت الألفاظ كما مكتوبة في الديوان، مثال لفظة (المدينة) مكتوبة بالهاء بدل التاء.

كان شيءٌ مدى ما ترى العين
كالغابة المزهرة
كان في كل مرمى صليبٌ وأمٌ حزينه
قُدِّس الربُ
هذا مخاض المدينه.

عمل السّياب على جعل عنصر الطبيعة المتمثل بالسنبل معادلاً موضوعياً لقضية استمرار الحياة عبر طريقتين، فمن الأولى هو غذاء، ومن الثانية هي صورة الزرع، والانبات وإعادة دورة الحياة، وهذا يؤكد ادراك الشاعر لأهمية استمرار الزراعة، للمحافظة على ديمومة الغذاء واستمرار لوازم الحياة، على خلاف من المدينة كما يراها الشاعر مصطنعة لا توجد فيها طبيعة حية، وكل ما يوجد فيها زائف، وطرقها الضيقة وبناياتها المكتظة تحجب الرؤية، وتحد من الحرية، وتُضعف المخيلة عن الرؤية والإدراك، وهذا ما تفرضه طبيعة الإحساس الشعري لدى أي شاعر، كونه يختلف عن بقية الناس في وقوعه تحت طائلة التأثير المباشر للصور البيئية الحية، كأصوات العصافير، أو خرير الساقية وغيرها(١). لذا يقول في قصيدة (المومس العمياء)(٢):

الليل يطبق مرة أخرى، فتشربه المدينه
والعابرون، إلى القرارة مثل أغنية حزينة
وتفتحت كأزهار الدفلى، مصابيح الطريق
كعيون (ميدوزا) تحجِّر كل قلب بالضغينة
وكأنها نذرٌ تحجر أهل بابل بالحريق
من أي غاب جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف
من أي وجر للذئاب
من أي عش في المقابر دفّ أسفع كالغراب....
عمياء كالخفاش في ضح النهار، هي المدينه
والليل زاد لها عماها....
أتريد من هذا الحطام الآدمي المستباح
دفء الربيع وفرحة الحمل الغرير من الصباح

(١) ينظر : الغربال، نعيمة ميخائيل، المجلد ١٥، بيروت _لبنان، مؤسسة نوفل، ١٩٩١م، ص٨٥.
(٢) الديوان، ص١٤٥.

ودواء ما تلقاه من سأم وذلٍ واكتداح
المال شيطان المدينة ...

إن في هذا النص امتعاضاً قويا من الشاعر تجاه المدينة، فقد فضح الشاعر العلاقات القائمة على المال فيها، وفقدها لدفء الربيع، فهي عمياء كالخفاش، وهي تشبه الغراب وقريبة من حياة الذئاب، على العكس من الريف، فهو مكتنز بالصور البيئية التي توحي بالحياة والعلاقات المحمومة بين البشر وبين المخلوقات الريفية بكل أصنافها، وحتى بين الناس ببعض، والمدينة على العكس من ذلك، فهي مظلمة بالرغم من تطورها الصناعي، وليلها جامد يحمل الحقد، وقلوب من يسكنها أقل نقاوة من أمثالهم في الريف، وتقوم كل العلاقات في المدينة على المال، وهذا يعني أن الشاعر يفتقد في المدينة لأنسنة البيئة قبل البشر، بل أن المتحكم في الحياة هم البشر وحدهم، والمتحكم بالناس هو المال، ولا وجود للمخلوقات البيئية معه، كما أن المدينة تفتقد لبواعث القيم الأخلاقية، بسبب ذلك المال وبسبب ضغط الحياة الذي يجعل الناس تغفل عن الطبيعة الحية بكل مكوناتها، فالليل في المدينة غير الليل في الريف، والأزهار تختلف أيضاً، فهي عمياء على حد وصف الشاعر، فقريته بالنسبة إليه «هي نوع من الملاذ الروحي الذي يحتمي به الانسان من طاغوت المادة ومن كفر المدينة و إلحادها وفرديتها العصابية القاتلة»[1].

ثم ينتقل الشاعر إلى دعوة صريحة للحفاظ على أهم عناصر الطبيعة، والتي يمثلها الماء، ليصف ويتعرض لقضية انقطاع الماء والجفاف، ويدعو في هذه قصديته دعوة مباشرة للحفاظ على الماء والأنهار، وهنا هي دعوة للحفاظ على عنصر الاستدامة لمكونات البيئة كما في قصيدة (مدينة السندباد)[2] :

صرخت في الشتاء
أقض يا مطر
مضاجع العظام والثلوج والهباء
مضاجع الحجر
وأنبت البذور، ولتفتح الزهر
وأحرق البيادر العقيم بالبروق
وفجر العروق

(١) بدر شاكر السياب شاعر الأناشيد والمراثي، إيليا حاوي، دار الكاتب اللبناني، بيروت، ص٤٥.
(٢) الديوان، ص١١٥.

وأثقل الشجر....
الموت في الشوارع
والعقم في المزارع
وكل ما نحبه يموت
الماء قيدوه في البيوت
وتلهث الجداول الجفاف

فالسياب هنا يستعين عبر خياله البيئي بالمطر، ليكون نزول المطر هنا بمثابة بث الروح في الأرض، كما أن صورة الجفاف قد لاقت عناية من لدن الشاعر، فهو يعالج قضية الجفاف ويدعو للحفاظ على الأنهار منها، وهذه الصورة تنم عن وعي بيئي متقدم لدى السياب، فهو غالباً ينظر إلى الطبيعة ومظاهرها نظرة ايجابية، فالمطر في الغالب يوظف توظيفاً سلبياً، لأنه مولد للسيول، وأحيانا للعزلة، وفي أخرى يثير الأشجان، إلا أنه عند السياب باعث للحياة، وسبباً لإنبات البذور وتفتيح الزهور.

وفي قصيدة (الأسلحة والأطفال) التي يعالج فيها السيّاب قضية الحرب، وما تخلفه من آثار سلبية على البيئة، والحياة بصورة عامة، فيجعل الشاعر مكونات الطبيعة عبر التشبيه البليغ تساوي حياة الإنسان، وخاصة الاطفال، إذ أن موت العصافير وصمتها بسبب الحرب هو موت للطفولة، وموت العصافير هو توقف للحياة، فسحب المركزية البشرية وتقديم المكونات البيئة لتكون متساوية لها هو عناية وإدراك ملموس لأهمية البيئة[1] :

عصافير؟ أم صبية تمرح
عليها سناً من غدٍ يلمح؟
وأقدامها العارية
محار يصلصل في ساقيه
لأذيالهم زفة الشمال
سرت عبر حقلٍ من السنبل

بعد أن وصف الشاعر الحياة، وما تحمله من استقرار وقرن مرح الأطفال بحياة العصافير، وما تضمه من حياة وأصوات ولهو، عبر خياله البيئي ذهب لأكثر من ذلك عبر جعل استمرار

(١) الديوان، ص١٧٧.

الحياة مقترن باستمرار الزراعة والسقي وحراثة الارض، وهذا يشير إلى إدراك الشاعر لأهمية البيئة، وضرورة المحافظة عليها، عبر المحافظة على النظام البيئي من خلال توفير عوامل الاستدامة، وعدم خلق ظروفا تسبب خرقاً للتوازن الذي تحتاجه البيئة للديمومة، فهو يدرك أن الطبيعة «أمنا الرؤوم منها لحومنا وعظامنا، ومنها أنفاسنا ونبضنا، ومنها غذاؤنا وكساؤنا وماؤنا»(١). فالحياة بلا روح دون مشاركة كل صور الطبيعة فيها(٢) :

وهمس النواعير والزارعون وفي كل حقل كنبض الحياه
تهز المحاريث قلب الثرى
وتبني القرى
قرى طينها من رميم الطغاه
وتخضل حتى الصخور الضنينة
ويثمر حتى سراب الفلاه.....
فلا بيدر في سهول العراق
ولا صبية في الضحى يلعبون...
لأن الطواغيت لا يسمعون
صداح العصافير في المغرب

تجار الأسلحة والحروب لا يفهمون معنى الحياة، ولا يبالون بالبيئة هذه الصورة التي رسمها الشاعر لهم، فهم لا يسمعون أصلاً صوت العصافير. على العكس من الشاعر الذي يرى في قريته الريفية سجل الماضي وذكريات الطفولة. إن هذه النصوص التي سبق ذكرها وضحت أن الوعي البيئي عند السياب لم يكن غائباً عن تفكيره، فسبب عدم انفصاله عن بيئته، وتعلقه بها حدا به أن يصورها أعمق تصوير، إذ لم يكتف بالوصف العارض، وإنما تجاوزه إلى معالجة الظواهر السلبية التي تعاني منها البيئة، وهذا بالتأكيد لم يُخطط له من قبل السيّاب حتى يدخله ضمن ما يطلق عليه حالياً بالخيال البيئي، أو الأدب البيئي، فهو سابق التجربة الشعرية للمنهج المذكور، وإنما جاء إحساساً منه بأهمية البيئة، كونها لا تقل أهمية عن الإنسان الساكن فيها.

(١) النور والديجور، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، دار المعارف، ص١٢٣.
(٢) الديوان ،ص١٨٥.

الخاتمة

_ أرى أن الأدب البيئي موجود في تجربة السياب، وقد يوجد في أغلب تجارب الشعراء في كل العصور، وذلك لتضمن نصوصه دعوات شكلها الخيال البيئي تفصح عن أهمية البيئة للإنسان، ويؤكد عن العلاقة الروحية مع المكان، والموجودات فيه من مكونات طبيعية، حيث نجد أنسنة البيئة بأبهى صورها.

_ صح أن الأدب البيئي هو منهج جديد من مناهج واتجاهات الأدب يدعو إلى المحافظة على البيئة، وبدأ المصطلح بالاستقرار، إلا أن ذلك يحتاج إلى دراسة وتحليل، ومعرفة مكان تلك الدعوة المطالبة بالحفاظ على البيئة عبر الفن، من حيث عرضها على نظريات الأدب _الفن للفن أم الفن للمجتمع.

_ لم يوظف الشاعر صور الطبيعة وأهميتها توظيفاً عرضياً، أو وصفاً خارجياً، وإنما عن خيال بيئي غني بالصور البلاغية، والمرجعيات الثقافية، والمعجم البيئي الخصب ضمنت لشعره الحيوية، فلم ينتقل إلى التقرير المباشر .

_ من الطبيعي أن يلحق الأدب البيئي نقّده، أي النّقد الذي يتناول النصوص البيئية ويحللها، ويفسرها في ضوء الآليات المقترحة للمنهج الجديد، وهذا أيضاً في طور التشكيل وتحديد الهوية ووضع المصطلح، لذا نجد تعدد المسميات حوله، أشهرها (النّقد البيئي).

_ يعدُ النّقد البيئي نافذة معاصرة فتحت الباب لدراسات جديدة، ليس بالضرورة أن يكون الأدب الحديث ميدانا لها، بل بالإمكان العودة إلى التراث الأدبي، وعرضه على الآليات الجديدة للنقد البيئي، والكشف من خلاله عن أهمية العلاقة بين الطبيعة والإنسان، التي لم تنفصل منذ القدم عن الأدب سواء بالوصف الخارجي، أو بما يسمى حالياً الأدب البيئي بمفهومه الجديد.

المصادر

أهمية النّقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، أ.د. محمد أبو الفضل بدران، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية .

الإنسان والبيئة، جواد كاظم الحسناوي ومحمد محمود زنكنة، مطبعة البهاء، ط٢، النجف، ٢٠١٧م.

أثر البيئة في النّقد الأدبي عند العرب، د. سعد محمد عبد الغفار، جامعة أسيوط _مصر، . د. ت .

بدر شاكر السياب شاعر الأناشيد والمراثي، إيليا حاوي، دار الكاتب اللبناني، بيروت.

إشكالية المصطلح البلاغي في الخطاب النقدي الجزائري المعاصر، فريد عوف، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد ١٧_ ٣، ط٢٠٢٠م.

التناص نظرياً وتطبيقياً، أحمد الزعبي، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٠م.

جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، الناشر: دار الجاحظ، بغداد، ط١، ١٩٨٠م.

الخيال البيئي في شعر ابن حميدس الصقلي في ضوء النقد البيئي، د. سلام علي ، ٢٠٢٤م .

ديوان أنشودة المطر، بدر شاكر السياب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر _ القاهرة، بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦م.

من أجل لغة خضراء _ محاولة في فهم أدب البيئة ونقده، د. خميس آدامي، مجلة أبوليوس، المجلد ٨ _العدد ٢، ، جولية ٢٠٢١م.

مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن، بعلي حنفاوي، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧.

المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي ابو غالي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٥م .

الغربال، نعيمة ميخائيل، المجلد ١٥، بيروت _لبنان، مؤسسة نوفل، ١٩٩١م.

نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، النقد البيئي أو الأيكولوجي، د. جميل حمداوي، موقع الألوكة، تاريخ الإضافة ٢٠١٢/٣/١٩م.

النقد البيئوي، جرج جيرارد ، ترجمة: عزيز صبحي جابر، دائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٩.

النظرية الأدبية، ديفيد كارتر، ترجمة: د. باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق _سوريا، ط١، ٢٠١٠م.

النقد البيئي مقاربات وتطبيقات، مجموعة مؤلفين، ترجمة نجاح الجبيلي، دار شهريار، العراق، بغداد، ط١، ٢٠٢٠م.

النقد الأدبي البيئي، قراءة في مدونة الدراسات العربية البيئية وممارسة تطبيقية على قصة «رأيت الجبل» لرضوى عاشور، هاني علي سعيد، ٢٠٢٢م.

النقد الأيكولوجي الطبيعة في النظرية والممارسة، مايكل برانش، ترجمة معين رومية، مجلة نواف، النادي الأدبي الثقافي جدة، عدد٣٦ ،٢٠٠٧ م.

النقد البيئي، الرؤية والتطبيق، دراسة تطبيقية لنماذج شعرية من شعر المدينة والريف للشاعر الجزائري عبد الملك بومنجل، فريد عوف، الجزائر مجلة دراسات المجلد ١٢/ العدد ١، ماي ٢٠٢٣م.

النور والديجور، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، دار المعارف، د. ت .

النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات المعاصرة، ايمان مطر السلطاني، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد ٣٣، آيار، ٢٠٢١م.

Sources:

The Importance of Environmental Literary Criticism in Critical Studies, Prof. Dr. Muhammad Abu al-Fadl Badran, Fourth International Conference on the Arabic Language.

Man and the Environment, Jawad Kazim al-Hasnawi and Muhammad Mahmoud Zangana, Al-Bahaa Press, 2nd ed., Najaf, 2017.

The Impact of the Environment on Arab Literary Criticism, Dr. Saad Muhammad Abd al-Ghaffar, Assiut University, Egypt. d.t.

Badr Shakir al-Sayyab, Poet of Anthems and Elegies, Elia Hawi, Dar al-Kateb al-Lubnani, Beirut.

The Problem of Rhetorical Terminology in Contemporary Algerian Critical Discourse, Farid Awf, Journal of Arts and Social Sciences, Issue 17_3, 2020 ed.

Intertextuality: Theory and Practice, Ahmad al-Zoubi, Ammon Foundation for Publishing and Distribution, 2nd ed., 2000.

The Aesthetics of Place, Gaston Bachelard, translated by Ghaleb Halasa, Publisher: Dar al-Jahiz, Baghdad, 1st ed., 1980.

Environmental Imagination in the Poetry of Ibn Hamidis al-Siqilli in Light of Ecocriticism, Dr. Salam Ali, 2024.

«Rain Song", Badr Shakir al-Sayyab, Hindawi Foundation for Education and Culture, Cairo, Egypt, August 26, 2012.

«For a Green Language: An Attempt to Understand and Criticize Environmental Literature", Dr. Khamis Adami, Apuleius Journal, Volume 8, Issue 2, July 2021.

«An Introduction to the Theory of Comparative Cultural Criticism", Ali Hanfawi, Arab House of Sciences, Algeria, 1st ed., 2007.

«The City in Contemporary Arabic Poetry", Mukhtar Ali Abu Ghali, Alam al-Ma'rifa, Kuwait, 1995.

«Al-Gharbal", Naima Mikhail, Volume 15, Beirut, Lebanon, Noufal Foundation, 1991.

«Theories of Literary Criticism and Rhetoric in the Postmodern Era: Environmental or Ecological Criticism", Dr. Jamil Hamdawi, Aloka website, added March 19, 2012.

Environmental Criticism, George Girard, translated by Aziz Subhi Jaber, Department of Culture and Tourism, Abu Dhabi, 1st ed., 2009.

Literary Theory, David Carter, translated by Dr. Basil Al-Masalma, Dar Al-Takween, Damascus, Syria, 1st ed., 2010.

Environmental Criticism: Approaches and Applications, a group of authors, translated by Najah Al-Jubaili, Dar Shahryar, Iraq, Baghdad, 1st ed., 2020.

Environmental Literary Criticism: A Reading of the Arab Environmental Studies Code and an Applied Study of Radwa Ashour's Story "I Saw the Mountain," by Hani Ali Saeed, 2022.

Nature Ecocriticism in Theory and Practice, Michael Branch, translated by Moein Roumieh, Nawaf Magazine, Jeddah Literary and Cultural Club, Issue 36, 2007.

Ecocriticism: Vision and Application: An Empirical Study of Poetic Models from the Urban and Rural Poetry of the Algerian Poet Abdelmalek Boumendjel, Farid Aouf, Algeria, Studies Journal, Volume 12, Issue 1, May 2023.

Light and Darkness, Mikhail Naimy, Noufel Foundation, Dar Al-Maaref.

Ecocriticism: A Green Horizon in Contemporary Studies, Iman Matar Al-Sultani, Journal of Arabic Language and Literature, Issue 33, May 2021.